الفصل السابع

شعر العصر العباسى

— ١ —

الشعر التاريخى

كان حظ مصر من الشعر قليلا فى عهد ولاة الأمويين كما رأينا ؛ ولولا الشعراء الزائرون الذين رعاهم عبد العزيز بن مروان لما كان للشعر فى هذا العهد حديث يذكر .

أما فى عهد العباسيين فكان حظها أوفر ، وأدبها أرقى ، وشعرها أكثر ، وإن لم تصل إلى منزلة بغداد ، ولا إلى درجة قريبة منها ؛ لما كان فى بغداد من حضارة ونعيم ، ومن جاذبية وإغراء ، ومن نهضة شملت العقل والذوق والخيال ، ومن رعاية كان يسبغها خلفاؤها ووزراؤها على العلوم والفنون والآداب ، فسمت بهذا على غيرها من الأقطار .

وكانت مصر تابعة لدار الخلافة ، فلم يكن فيها من الحكومة المستقرة ، والثروة الواسعة ، والعطاء الجزيل ، ما كان فى حاضرة الدولة . ولم يكن فيها من حماة الأدب ومجالسه وبواعثه ، مثل ما كان فى بغداد ؛ فانصرف الشعراء عن قصدها ؛ إذ كان ولاتها أتباعاً ، وكان عهدهم قصيراً ، وعطاؤهم قليلا ، وحسابهم من رؤسائهم عسيراً ؛ وإن لم يخل هذا العهد من ولاة رعاة للأدب ، صفت أذواقهم فقدروه ، وسخت نفوسهم فأجزلوا له العطاء :

ولكن بغداد أفاءت على البلاد الأخرى بعض حضارتها ورخائها ، ونفخت فيها من روحها ، وبثت فيها من علومها ومذاهب أدبائها ، فكان لذلك آثار ظاهرة فى تاريخ البلاد التابعة لها ؛ ونالت مصر قسطها من ذلك ، فارتقت بها الآداب والفنون والأذواق ، وتقدمت العلوم الشرعية واللسانية ، وظهر فيها أدباء من أهلها لا ينكر أدبهم .

غير أنه كان بين الشعر هنا وفى بغداد ما بين التابع والمتبوع من تفاوت فى المنزلة ، وفرق فى تقدير الناس . وأخص منهم الرواة ، ومؤرخى الأدب ، والمحدثين بالأخبار والنوادر ، الذين استضعفوا ما كان منه ، وآثروا عليه رواية القديم ، أو الجديد الجيد من أدب بغداد وغيرها . واستطاعت مصر — بالرغم من ذلك كله — أن تخرج شعراء فى عهد العباسيين يتحدث عنهم تاريخها .

وهذا الشعر الذى فاضت به خواطر الشعراء المقيمين بمصر كان صفحة من تطورات الوقائع والحوادث ، وديواناً للتقلبات السياسية ، وسجلا من سجلات التاريخ المصرى ، كما نرى فى الباقى من مختاراته فى كتب التاريخ . فاهتم به المؤرخون لأنه حفظ لهم ما لم يحفظه الرواة ، واهتم به مؤرخو الأدب لما رأوا كثيرا منه ذاتياً فى معانيه ، مستقلا فى فكرته ، مصرياً فى وحيه وموضوعاته . أما أسلوبه وعباراته فلم تخل من طابع مصرى يبدو فى بعض الأحيان .

وإذا نظرت إلى ما أثر من هذا الشعر وجدت منه شعراً يحرض على الولاة الذين فسد حكمهم ، ويغرى بالعمال الذين ضل سعيهم ، كموسى بن مصعب الخثعمى الذى كان والياً للمهدى (سنة ١٦٧) وتشدد فى استخراج الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولا ، وقبل الرشوة فى الأحكام ، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب ؛ فكره الناس فعله ، وقال شاعر يثير الخليفة عليه ، ويحبذ رأى الوزير يعقوب بن داود فى وجوب عزله :

لو يعلمُ المهدىُّ ماذا الذى ... يفعلُه موسى وأيوبُ[1]
بأرضِ مصرٍ حين حَلاَّ بها ... لم يُتَّهَمْ فى النصح يعقوبُ

ومنه شعر جمع بين المدح والتأييد ، وبين التشفى والشماتة ؛ فإن أهل الحوف والفسطاط تحالفوا على موسى بن مصعب ؛ وكان ظالماً غاشماً ، فضاق الجند والناس به وخرجوا عليه وقتلوه (سنة ١٦٨) .

وقال سعيد بن عفير يذكر الذين قتلوه . ويحمد لهم أعمالهم[2] .

ألم ترهم أَلْوَتْ بموسى سيوفهم ... وكانت سيوفاً لا تدين لمُتْرف
فما برحت فيه تعود وتبتدى ... إلى أن تروى من حِمام مُذَرِّف
فأصبح من مصر وما كان قد حوَى ... بمصرٍ من الدنيا ، سليبا بنَفْنَفِ

وقد يتحدث الشعر بلسان أهل البلاد فيعبر عن آلامهم وسخطهم ، وينطق بمشاعرهم وإحساسهم ، ويتكلم بما يحبون من طعن فى واليهم وأعوانه :

ولى مصر الحسين بن جميل للرشيد سنة ١٩٠ ، وجعل على شرطه كاملا الهُنائى ، وسخط بعض الناس عليه ، وامتنع أهل الحوف عن أداء الخراج ، فقال سعيد بن عفير[3] : يطعن فى الأمير وأعوانه ، ويذم قبائل من أشقاهم الحظ بهجائه .

ما كنت أحسب أن الحينَ يجمع ما ... أمسى بمصر من الأنذال فى الإمَرِ
أما الأمير فخَنَّاثٌ ، وصاحبه ... على الخراج سَوَادِىٌّ من الأُكَرِ[4]
هذا الهُنائى من الفسطاط يخلفه ... والباهِلِىُّ على أعماله الأُخَرِ
كل لصاحبه شكلٌ يلائمه ... فهمْ سواسِيَة فى اللؤمِ كالحُمُرِ
وما هُناءةُ إلا ظِلفُ ذى يمن ... والباهليون مأوى اللؤم من مُضرِ

---

(١) الولاة والقضاة ص ١٢٥ (٢) شرحه ص ١٢٧
(٣) شرحه ص ١٤٢ (٤) خناث : مخنث . سوادى : فلاح .

فما يسوغُ لنا عيش فينفعنا مَعْ ما نرى لهمُ من رِقَّةِ الخطرِ

وهذا شعر آخر ينشده ثائر على الدولة ، خارج على السلطان هو أبو الندى مولى بلى ، الذى خرج فى نحو ألف رجل فقطع الطريق « بأيلة » وغيرها ، وأغار على بعض مدن الشام ، ثم ضوى إليه رجل من جذام يقال له أبو المنذر بن عابس ، وأرسل الرشيد يحيي بن معاذ فى طلبهم ، وطلبهم الحسين بن جميل من مصر أيضاً[١] .

وكان أبو الندى يقول محرضاً لأصحابه ، مثيرا لحماستهم عند اللقاء :

أقول إذا الرِّفاقُ بدت لوجهى ألا حُلُّوا رحالكم وطيروا
وإن لم تتركوها فاستعدوا لحرب مثـــل جابية تفور
أقول لصحبتى كُرُّوا عليهم فليس يُهِرُّهمْ إلا الكرُور

وظفر يحيي بن معاذ بأبى الندى وصاحبه ابن عابس وأرغم أهل الحوف على الخراج بعد امتناعهم ، وقدم الفسطاط سنة ١٩٢ ، فنزل دار ابن عون ، وقال أبو عثمان السكرى : يفخر بما كان ويمدح يحيى[٢] :

قد جبينا قيساً ولم تَكُ تُجْبى وقتلنا أبا الندى وابنَ عابِسْ
وتركنا لخما وحَيَّ جُذامٍ لا يطيقونَ رفعَ كفٍّ تُلامِسْ
آمن الله بالمبـــارك يحيي حَوْفَ مصرٍ إلى دمشقَ فبالِسْ[٣]
وأباد الخُلاَّع من كل أرض بعد ما حاد عنهمُ كل فارس

وقال أيضاً يحذر قيساً ، وينصح لهم أن يؤدوا الخراج[٤] :

يا قيسَ عَيْلاَنَ إنى ناصح لكمُ أدوا الخراجَ وخافوا القتلَ والحَرَبا

---

(١) الكندى ص ١٤٣ (٢) ص ١٤٥
(٣) بالس : بلدة على الفرات . (٤) ص ١٤٥ .

إنى أحذركم يحيى وصولتَه فما رأيت له نَقْيًا إذَا غَضِبَا

ثم خرج يحيى من مصر بعد أن أهان القيسية واليمانية .

النزاع بين الأمين والمأمون :

ولم يغفل الشعر عما كان من النزاع بين الأمين والمأمون ، وامتد أثره إلى مصر فقد كان بها واليان أحدهما : عباد بن محمد بن حيان من قبل المأمون ؛ والثانى ربيعة ابن قيس الذى جعله الأمين واليًا . فتحاربا ، وعقد عباد لابراهيم بن حُوَىّ العذرى ، وحاربه يزيد بن الخطاب من معسكر الأمين ، فقتل ابن حوى ، وقال سعيد بن عفير[1] يلوم يزيد بن الخطاب الكلبى على قتله ، ويحرض قضاعة على الأخذ بثأره .

قتلوا ابنَ سيدهم وفارس حزبهم عن غير ثائرة ولا إجرامِ
فلئن قضاعةُ لم تطالبْ ثأره بكتيبة خشناء ذاتِ غرام
ما فى قضاعة بعدها ما يرتجى للنائبات ، وما هُمُ بكرام[2]

ولم تنفع المأمون ولاية عبد العزيز الجروى ولا السرى بن الحكم ، وكادت ريحه بمصر تذهب ، لولا أن أدبر أمر الأمين بالعراق ، وقتل سنة ١٩٨ . عند ئذ رجحت كفة المأمون ، ودانت له البلاد .

ووليها المطلب الخزاعى للمأمون (ربيع الأول سنة ١٩٨) . فأقر على شرطه هبيرة بن هاشم بن حديج ، وكان السرى بن الحكم تلقاه وهو قادم من مكة فأغراه بأهل مصر ، وخوفه إبراهيم بن نافع الطائى ، فجد المطلب فى أثره ، فأعياه ، واتهم ناساً بإخفائه منهم هبيرة ، فحبسهم ليظهروه ، أو ليدلوا عليه ، وعرض هبيرة على

---

(١) الكندى ص ١٥٠ .

(٢) الثائرة : الثورة والهياج ، الغرام : الهلاك .

السيف ، فأبى أن يدل عليه ، فلما سكن الطلب هرب إلى الصعيد .

وقال سعيد بن عفير : يذكر وفاء هبيرة ويمدحه مدحاً خالصاً[٣] :

لعمرى لقد آوفى ، وَفاقَ وفاؤه ، هُبَيْرةُ ، فى الطائى وفاءَ السموءَلِ[١]

وفاه المنايا ـ إذ أتاه ـ بنفسه وقد بَرَقت فى عارِضٍ متهلل

فما انفك محبوساً ومُطَّلِبٌ له عليه قصيف بالوعيد المُهَوّل

فما زاده الإيعادُ إلا تَوَقُّراً وصبراً ، ولم يخشع ولم يَتفكَّل

إلى أن تجلت عنه أبيض ماجدا كريم السَّنا فى المشهد المُتدخّل[٢]

وبلغ المطلب اجتماع ربيعة بن قيس ويزيد بن الخطاب على حربه بأسفل الأرض فبعث إليهم عبدالعزيز الجروى ، فهزمهم بشطنوف ، وبعث السرى بن الحكم فكان مقيما بالحوف . وتفرقت قيس وسكن أمرهم .

وعُزل المطلب عن مصر فى شوال سنة ١٩٨ ، ثم وليها العباس بن موسى من قبل المأمون فولى عليها ابنه عبد الله — وهو الذى جاء إلى مصر بالإمام محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه سنة ١٩٨ هـ[٣] — وانضم إليه عبد العزيز ابن الوزير الجروي ، وسجن المطلب . واستبد عبد الله بن العباس والجروى والأنصارى بالجند والناس ، فثاروا بهم وأخرجوا المطلب من سجنه وولوه أمرهم[٤] .

وانضم إبراهيم الطائى إلى المطلب وكذلك الأنصارى . ثم عرف المطلب بكتب من العباس إلى الطائى والأنصارى . فبعث المطلب بهبيرة بن هاشم فقتل الطائى ، وسلط الجند على الأنصارى فقتلوه . وقال المعلى الطائى يذم العباس ، ويحرض

---

(١) ص ١٥٢ .
(٢) لم يتفكل : لم يجبن ولم يضعف قلبه . النثا : الخبر .
(٣) النجوم الزاهرة جـ٢ ص ١٦١ .
(٤) ص ١٥٥ .

المأمون عليه ، ويذكر فضل المطلب فى إراحة المأمون والناس منه :

كفاهم من العباس ما لو مُنُوا به ... لأحيا لهم من جور فرعون ماعدلْ
فمن مبلغُ المأمون عنى نصيحة ... وما عالم شيئاً سواءٌ ومن جهل
بأن ابن عبد الله لولا مكانه ... لَعُرِّفتَ للعباس داهيةً جَلَلْ

وقال سعيد بن عفير فى مقتل أبى بشر ـ الحسن بن عبيد بن لوط ـ الأنصارى ويذم المطلب فيما فعل : ويتهمه بالغدر بأبى بشر الأنصارى[1] :

أرى كل جار قد رمى بجواره ... وخان أبا بشر جوارُ ابن مالك
أُمطَّلِبُ هلاَّ منعتَ ابن غادر ... وأديته قبل انسداد المسالك

الجروى والسرى بن الحكم :

وامتنع الجروى بتنيس على الرغم من ولايته عليها للمطلب ، فولى غيره ، فسار الجروى بمراكبه إلى شطنوف . فقابله السرى فى جمع من الجند للصلح ، فأجابهم ثم اجتهد فى الغدر بالسرى وأسره فى زلاجه ، وسار به إلى تنيس سنة ١٩٩ .

ثم عقد المطلب لمحمد بن هبيرة على الإسكندرية ، فاستخلف عليها عمر المعروف بابن هلاَّل من أسرته ، ثم عزله المطلب بأخيه الفضل بن عبد الله بن مالك .

فثار عمر بن هلال بإيماز من الجروى ، وأخرج الفضل ودعا الأندلسيين ، وعند عودته عاون أهل الإسكندرية الفضل . وردوا الأندلسيين إلى مراكبهم التى كانت مرابطة تجاه الإسكندرية .

وجد المطلب فى أمر الجروى ، فأخرج الجرويُّ السريَّ من سجنه ، واستعان به ، والتقى هبيرة بن هاشم بجنود السرى ، الذى تحير به فرسه فسقط فى حفرة ، فأدركه

---

(١) الكندى ص ١٥٦ .
(٢) الكندى ص ١٥٦ وما بعدها .

الجند فقتلوه ، وجزع المصريون لذلك أشد الجزع . فقال سعيد بن عفير يرثيه ، ويذكر مصرعه فى ميدان الشرف ، بعد أن مدحه فى موقف آخر يوم أن أوفى وفاق وفاؤه وفاء السموءل :

لَعمرى لقد لاق هُبَيْرَةُ حتفه ... بأفضلِ ما تُلقى الحتوفُ السوارعُ
بأنفٍ حَمِيٍّ لم تخالطه ذِلَّةٌ ... وعِرْضٍ نَقِيٍّ لم تَشِنْهُ المطامع
عشيةَ يستكفيه مُطَّلبُ الذى ... به ضاق ذرعاً والمنايا كوارع
فما انفك يحميه ، ويجعل نفسه ... له جُنَّةً ، حتى احتوته المصارع
فلاق المنايا فوق أجردَ سابحٍ ... وفى الكف مأثورٌ من الهند قاطع
فبينا يخوض الهول من غمراته ... وأعداؤه من حوله قد تجاشعوا
تَقَطَّرَ فى أُهْوِيَّةٍ عن جواده ... فصادفه حَتْفٌ من الموت واقع[1]

وطلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم الأمر إليه ، ويخرج عن مصر فقبل السرى ، وخرج المطلب فى بحر القلزم إلى مكة .

قال دعبل الخزاعى للمطلب :

فكيف رأيت سيوف الجريشِ ... ووقعةَ مولى بنى ضبةِ
أحجتك أسيافهم كارها ... ومالك فى الحج من رغبةِ

وقد ولى السرى مصر بإجماع الجند (رمضان سنة ٢٠٠) [2] ، وكان مسالماً للجروى وثار ابن هلال المعافرى بالإسكندرية ودعا للجروى . وخاصم الأندلسيين

---

(١) تقطر فى أهوية : سقط فى حفرة .

(٢) كانت هناك ثورة داخلية من سنة ١٩٧ — ٢٠٠ انتهت بتولى السرى بن الحكم أمر مصر ، وقد حكم البلاد هو وابناه من بعده حوالى عشرة أعوام . وتستحق أسرته أن يطلق عليها أول أسرة كانت مستقلة نصف استقلال بمصر . مقدمة الكندى ص ٣ Ghuest

وظهرت طائفة الصوفية بالإسكندرية فاتفقوا مع الأندلسيين على ابن هلال . واعتضدوا بلخم ، وكانت أعز من فى الإسكندرية .

وذهبت الجموع إلى قصر بن هلال وحاصروه فيه ، وخشى أن يدخلوه وينتهكوا حرماته ويفتكوا بالحرم ، فاغتسل وتحنط ، وتكفن ، وأمر أهله أن يُدلّوه إليهم ، فدلوه فأخذته السيوف ، ودلى عدد من أهل بيته فقتلوا جميعاً سنة ٢٠٠ .

قال سعيد بن عفير يرثى ابن هلال ويذكر دفاعه عن الاسكندرية ، ويشير إلى علمه وحبه للخير ، وإبائه للضيم :

لا يَبعدَنَّ ابن هلاّل فقد ذهبت ... منه المنون بعلم طيب النَّسَمِ
لا يرأمُ الضيمَ من حب الحياة ، ولا ... يقبل دون فعال الخير بالقسم
ولا يزال له من مجده طَرَف ... يُسنِّدُ ما حاز عن آبائه القُدُم[1]
ما انفك يحمى ذمار اسكندرية فى ... هدءٍ حميد وعز غير مهتضم
حتى إذا جاءه من كان يأمنه ... وصرح الموت جهراً غير مكتتم
خاض الأسنة والهنديَّ محتسباً ... حتى تجرع كأس الموت من أمَم

وفسد الأمر بالإسكندرية بعد مقتله واضطرب ، فسار إليها الجروى سنة ٢٠١ وكاد يفتحها ، لولا أن بعث السرى إلى تنيس بعمرو بن وهب الخزاعى ليخالف إلى منزل الجروى ، فرجع الجروى إلى تنيس ، وفسد ما بينه وبين السرى .

وقال ابن عفير للجروى[2] :

ألا من مبلغُ الجرويِّ عنى ... مغَلْغَلةً يعاتب أو يلومُ

---

(١) القدم : الشجعان .
(٢) الكندى ص ١٦٥ .

أقمت تنازل الأبطال حتى تميز ذو الحفيظة والسئومُ
وُصلت بهم فما وهنت قواهم وطيرُ الموت دائرة تحوم
ولو هجمت جموعك حين حلّوا عليهم باد جمعهم المقيم

ثم وثب الجند على السرى وعزلوه ، وأظهروا كتاباً من طاهر بن الحسين بتولية سليمان بن غالب بن جبريل . وكان ذلك فى أول ربيع الأول سنة ٢٠١ . وذهب الجند دار السرى ، وسيره سليمان بن غالب إلى أخميم . ولكنه استعان ببنى مدلج وهم كثير ، وسار بهم إلى الفسطاط ، فبعث إليه سليمان بجيش فالتقوا «بقمن» فهزم السرى ، وأسر هو وابنه ، وردا إلى إخميم (جمادى الأولى سنة ٢٠١) فقال المعلى الطائى يمدح سليمان ويجامله :[1]

إذا شن فى أرض سليمانُ غارةً أثار بها نقعاً كثير المصائب
ألم تر مصراً كيف داوى سقيمَها على حينَ دانت للعدو المناصب
حماها ، ولولا ما تقلد أصبحت حبيساً على حكم القنا والمقانب[2]

ثم فسد الأمر على سليمان بن غالب ، ولحق بالجروى .

وولى السرى الأمر مرة ثانية بمصر من قبل المأمون وكان محبوساً بأخميم . فقدم الفسطاط (١٢ شعبان سنة ٢٠١) وتتبع من حاربه قتلا وصلباً وتعذيباً . فانتظم أمره وقوى سلطانه .

ثم جاءه كتاب المأمون بأخذ البيعة لعلى بن موسى بن جعفر بن على بن أبى طالب ، فى المحرم سنة ٢٠٢ ، فأبى هذه البيعة إبراهيم بن المهدى ، وخرج على المأمون ببغداد ، وكاتب وجوه الجند بمصر لخلع المأمون وولى عهده ، وعرف السرى بالخارجين لمحاربهم ، وفيهم الجروى وسلامة الطحاوى وعبد العزيز الأزدى .

---

(١) الكندى ص ١٦٨

(٢) المقانب جمع مقنب ، وهو جماعة الخيل ، من ثلاثين إلى أربعين .

وسار الجروى إلى الإسكندرية فاستولى عليها ، واستعد كل من الجروى والسرى لصاحبه ، والتقت جموعهما بشطنوف . فقتل ميمون بن السرى وانهزم عسكره (جمادى الآخر سنة ٢٠٣) .

وقال معلى الطائى يرثى ميموناً[١] :

لو ردَّ غربَ منية بشجاعة ... أحدٌ لدافع ركنها ميمونُ

لو كان تجريد السيوف يردها ... لحماه منها مُنْصُل وثمين

ما زالت أطمع فى رجوعك سالما ... ويَرُوعُنِى شفقاً عليك ظنونُ

فليُفْجَعَنَّ غداً بقتلك طاهرٌ ... وليُفْجَعَنَّ بقتلك المأمونُ

ثم فشلت حركة إبراهيم بن المهدى ومات على الرضا ، وعادت البلاد إلى طاعة المأمون فولى السرى مرة ثالثة ؛ ثم اختلف الجروى مع الأندلسيين بالإسكندرية ، فثاروا عليه ، ودعوا للسرى ، فخرج إليهم الجروى (رمضان سنة ٢٠٣) فثار القبط وساعدتهم بنو مدلج بسخا . فخرج إليهم الجروى فهزمهم .

فقال المعلى الطائى يمدح عبد العزيز بن الجروى[٢] .

فقل لأمير المؤمنين نصيحةً ... وما حاضر شيئاً كآخر غائبِ

لقد حاطنا عبد العزيز بسيفه ... ولولاه كنا بين قتْل وناهبِ

وبعث السرى بأخيه إلى الصعيد لمحاربة سلامة الطحاوى ، فظفر به وبابنه إبراهيم وبعث بهما إلى الفسطاط فقتلا هناك (المحرم سنة ٢٠٤) فقال المعلى الطائى يعيب فعل الطحاوى ، ويبرر قتله .

أراد الطحاوى التى لا شَوَى لها ... فأوقد ناراً ، كان بالنار صالياً .

ودب لأقطار البلاد بفتنة ... فجاشت بسقم لا يجيب المداويا

---

(١) الكندى ص ١٧٠ .

(٢) الكندى ص ١٧١ .

وراسله من كان يخفى بفـــاقـةٍ وأصبح ذا مَيْـلٍ إليه مماليا
جنت مااستحق القتلَ يا صاحِ كفُّه وكل امرىء يجزى بما كان جانيا[1]

وحاصر الجروى الإسكندرية من شعبان سنة ٢٠٤ إلى صفر سنة ٢٠٥ ونصب عليهم المجانيق وأصابته فلقة من حجر منجنيقة فقتلته فى آخر صفر سنة ٢٠٥ ، ومات السرى بالفسطاط بعده بثلاثة أشهر .

وانتقلت العداوة والصراع والولاية إلى ولديهما ، أبى نصر بن السرى ، وكان معه الصعيد ؛ وعلى بن عبد العزيز الجروى ، وكان يحكم أسفل الأرض (الوجه البحرى) .

والتقت جيوشهما بشطنوف فانهزم أحمد بن السرى أخو أبى نصر ، ولم يتبعه على الجروى ، فقال سعيد بن عفير :

ألا من مبلـــغ عنى علياً رسالة من يلوم على الرُّكوكِ
علام حبست جمعك مستكفاً بشط يموف فى ضنك ضنيكِ
وقد سنحت لك الغفران ممن رماك بجيشه الوَهن الركيكِ[2]

ثم اصطلحا ومات أبو نصر (٨ شعبان سنة ٢٠٦) ، وولى أخوه عبيد الله بن السرى مكانه ، وأرسل المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وحالفه على بن عبد العزيز الجروى ، وجبى خالد ما مر به من القرى ، والتقى بجيش ابن السرى بفاقوس ثم التقت جيوش الفريقين بدمنهور ، على أميال من الفسطاط ، وانتهت المعارك بانتصار عبيد الله فى اليوم الرابع سنة ٢٠٧ .

واحتج كل من خالد ، وعبيد بن السرى بكتاب المأمون إليه بالولاية فقال سعيد بن عفير هذه الأبيات الثلاثة يقدم النصيحة ، ويود أن يرتقب الفريقان رأى المأمون الواضح .

---

(١) الكندى ص ١٧١ .
(٢) ص ١٧٣ . الغفران محرفة عن كلمة أخرى مثل « الغفوات » .

يأيها المتحاربان وإنما دعواهما المأمون فى الصدقات
هل ترجعان إلى التقية والتقى وتتاركان تعاور الغارات
حتى يجىء من الخليفة أمره فيميز بين الحق والشبهات

ثم مكر على بن عبد العزيز بخالد فى زمن الفيضان وتركه محصوراً فى جهد وشدة (فى نهيا) فقال معلى وكأنه يؤيد فعل ابن الجروى :

سلا خالداً لما انجلى عنه شكه وأسلمه فى عُدوة البحر خاذلهُ
فزالت أمانيه غداةَ سما لنا بعارض جيشٍ يمطرُ الموتَ وابلهُ

ولما انكشف النيل سار عبيد إلى « نهيا » فأسر خالداً ، واستأمن أكثر جيشه فى (شوال سنة ٢٠٧) . قال معلى الطائى : يمدح القائد ويذم أعوانه الذين أسلموه[1] :

ألا لا أرى خيلا أضر له الوغى وأجبن فى الهيجاء من خيل خالد
وقواده أشرار كل قبيلةٍ تمالوْا على إسلامه فى الشدائد
فإن يقتلوه يقتلوا منه سيداً شجاعاً جواداً ماجداً وابن ماجد
وإن كفوا عن قتله فهى مِنة لآل سَرىٍّ فى مناط القلائد

فمنَّ عليه عبيد وأكرمه ، وسيره إلى مكة من القلزم برغبته :

وولى المأمون عبيدالله على ما فى يده ، وعلى بن الجروى على ما فى يده وضمنهما الخراج ، ولكن أهل الخوف منعوا الجروى الخراج واستعدَوْا عليه ابن السرى فأمدهم بأخيه ؛ وتحمل ابن الجروى بمن معه إلى دمياط بعد أن التقوا ببلقينة (١٣ صفر سنة ٢٠٧) .

---

(١) الكندى ص ١٧٦ .

فقال معلى الطائى منتصرا لعبيد[١]

ألا هل أتى أهل العراقين وقعة ... لنا بحمى بلقين شيبت الوُلْدا
وما كان منا قتلهم عن جهالة ... خطاءً ولكنا قتلناهمُ عمدا
ولما تبينت المنية فى القنا ... نكصت تنادى، حين ضل النَّداسمدا
فوليت عن ربع المحلَّة هاربا ... على أبله ما تركب الجور والقصدا
فكيف رأيت الله أنزل نصره ... علينا وولاك المذلة والطردا
سنهدى إلى المأمون منا نصائحاً ... عليه بإظهار الخلاف الذى أبْدَى

وسار ابن السرى وراء ابن الجروى ، ففر هذا من دمياط إلى الفرما ، ثم العريش ، ثم نزل ما بين العريش وغزة .

قال سعيد بن عفير :[٢]

ألا يا علىُّ بن عبد العزيز ... إلى أين صرت تريد الفرارا
فلستَ بأولِ من كاده ... عدوٌّ فكر عليه اعتكارا
وأجْدُر مصيرك أن يسحبوا ... إليك فتوحاً عظاماً كبارا
فتدركك ثأرك من أهله ... وتلبس بعد الكُبوِّ الفَسارا[٣]

وعاد ابن الجروى فأغار على الفرما ، وهرب أصحاب عبيد من تنيس ودمياط إلى الفسطاط ، وأقبل ابن الجروى إلى شطنوف ، فقابله محمد بن سليمان بن الحكم من قبيل عبيد فانهزم ابن الجروى آخر النهار ، ومضى عبيد إلى تنيس ودمياط ، ولحق ابن الجروى بالعريش سنة (٢٠٩)

قال المعلى الطائى : [٤]

ألم تر خيله صبَحت عليا ... تُدِفُّ على مَناسجها النِّساعا

(١، ٢) الكندى ص ١٧٧ .
(٣) شرحه . والفسار : التاج ، فارسى معرب أفسر وفسار .
(٤) الكندى ص١٧٩ . تدف : تحرك . المناسج : جمع منسج كمنبر وهوأسفل الحارك . النساع : جمع نسع وهو السير من الجلد .

فولى عن عساكره وخلّى ... على الأسل المدائن والرّباعا
ولكن فات فوق أقبّ نهدٍ ... كرجع الطرف لا يخشى اضطلاعا
فحسبك أن قومك من جذام ... وسعدٍ لا ترى لهم اجتماعا
دعتهم طاعةٌ لك فاستجابوا ... ومن عجب لمثلك أن يطاعا

وأقبل عبد الله بن طاهر إلى مصر سنة ٢١٠ وانضم إليه ابن الجروى ، وأبى عبيد الله بن السرى أن يسمع له ويطيع[1] ، فنزل ببلبيس ، ودعا عبيداً وخوفه ومناه ، فلم يستجب ، وأخذ يحفر خندقه ، ويحكم أموره ، ويشحن سفنه ، وسار ابن طاهر من بلبيس حتى نزل « زفيتا » وعقد بها جسرا ، وبعث عيسى بن يزيد الجلودى إلى شطنوف ، وأقبلت سفنه من الشام ، وجعل عليها ابن الجروى لمعرفته بالحرب فى البحر ، وجعل عبيد على مراكبه أبا السرور عسامة بن الوزير الشيبانى والتقى الجمعان فانهزم عبيد ، وأقبل ابن طاهر إلى خندق عبيد الذى احتفره فنزل عليه (محرم سنة ٢١١) فاستأمن أبو السرور فى جمع كبير إلى ابن طاهر .

---

(١) الكندى ص ١٨٠ ، وفى النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٨١ أن المأمون بعث بابن طاهر لحرب عبيد الله بن السرى ، وقال له : « إنى استخرت الله تعالى منذ شهر ، وقد رأيت أن الرجل يصف ابنه ليطريه وليرفعه ، وقد رأيتك فوق ما وصفك أبوك ، وقد مات السرى وولى ابنه عبد الله ، وليس بشىء ، وقد رأيت توليتك مصر ومحاربة الخوارج بها » فقال عبد الله : « السمع والطاعة ، وأرجو أن يجعل الله الخير لأمير المؤمنين » ولما ضيق ابن طاهر على عبيد الله طلب الأمان وشرط شروطا ، وبعث إليه بتقدمة من جملتها ألف وصيف ووصيفة ، مع كل وصيف ووصيفة ألف دينار فى كيس حرير ، وبعث بهم ليلا ، فرد عبد الله بن طاهر ذلك عليه ، وكتب إليه :

لو قبلت هديتك نهارا لقبلتها ليلا ، « بل أنتم بهديتكم تفرحون »

فلما بلغه ذلك طلب الأمان بلا شرط .

لَعَمْرى لقد كانت بمصرَ وقيعةٌ ... أقامَتْ على قَصْدِ الهوى كلَّ مائِل
على الخندق الأقصى وما كان حوله ... وما قد يليهِ من فضاءٍ وساحلِ
رأى ابنُ السَّرى النَّصرَ أولَ يومه ... وأوْدَى بليث من أبى السَّرْو باسِل (١)
لَوَيْنَ جموعَ ابنِ السرى وخيلَه ... شماطيطَ تَتْرى كالنعامِ الجوافل
فلما رأوا ألا مَحيصَ وأنه ... كفاحُ الردى فى كل حق وباطل
توخَّوْا أمانَ الأريحى ابن طاهر ... فمِن فارس يأتيه طوعاً وراجل

وقدم أبو صالح التميمى من بغداد بكتاب أمان لابن السرى ، وبتوقيع المأمون إلى ابن طاهر ، لما كتب إليه هذه الأبيات يفوض الأمر إليه ، ويجعل له السلطان المطلق فى أمر ابن السرى (٢) :

أخى أنت ومولاى الذى أحفظُ نُعْماه
فما تهوَى من الأمر فإنى سوف أهواه
وما تسخطُ من شىء فإنى لست أرضاه
لك اللهُ على ذاكَ لك الله ، لك الله

ومن الشعر الذى قيل هجاء لعبيد الله ما قاله شاعر يسمى أحمد الحراوى :

أترجو مهاةٌ دفعَ ضرغامِ غابةٍ ... كَشَتَّان ما بين المها والهَزابر
وإن أحق الناس أن يشهد الوغى ... ويقصف أصلاب الملوك الجبابر
لَمَن لم يكن فى الروع فى زى غادة ... ولم يحتجب صُبْحاً لِنَشْطِ الضفائر

فقد هجاه بمشابهته النساء ، وهو هجاء قل مثله فى الأدب العربى السابق ،

---

(١) شماطيط : متفرقة .

(٢) الكندى ص ١٨١ ، ورويت فى النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٩٢ مع اختلاف يسير ، ولمناسبة أخرى . هى أن المأمون كتب إلى ابن طاهر يأمره بالزيادة فى الجامع العتيق ، فزاد مثله ، وكتب يعلم المأمون بذلك ، وأرسل إليه هذه الأبيات

وفيه إشارة إلى إرسال الرجل شعره ، وجعله ضفائر يمشطها ويرجلها .

ثم وليها ابن طاهر من قبل المأمون (ربيع الأول سنة ٢١١) . وخرج عبيد بن السرى إلى بغداد (جمادى الأولى سنة ٢١١) . فقال حبيب بن أوس الطائى :

فأورده بغـــداد تهوى برحله ذَمولٌ ترامى فى قلاص ذوامل
فأصبح قد زالت ظلالُ نعيمه وأىُّ نعـــيم ليس يوماً بزائل !

وقد عاش عبيد بعد ذلك زمناً ثم مات بسر من رأى سنة ٢٥١ هـ

وعادت البلاد تابعه للخلافة ، ولكن شعرها ظل كما هو — فيما يبدو لنا من هذه الأمثلة القليلة — مهتما بالسياسة ورجالها ، وبالحوادث وتسجيلها .

ثم خرج منها ابن طاهر ، واستخلف عيسى بن يزيد الجلودى (١٧ ذى القعدة سنة ٢١٣) وقدم الخبر بولاية أبى إسحاق بن هرون الرشيد (المعتصم) وعزل ابن طاهر ، فأقر الجلودى ، ولكنه ظلم وزاد الخراج ؛ فانتقض أهل البلاد ، وحاربهم ابن الجلودى فى بلبيس فهزموه (وذلك فى صفر سنة ٢١٤) .

ثم وليها عمير بن الوليد باستخلاف أبى إسحاق له (١٩ صفر سنة ٢١٤) .

فاستعد لحرب أهل الخوف . وخرج عليه القيسية واليمانية ، وعلى الأولين قيس بن عبد الله بن حليس الهلالى ، وعلى اليمانية عبد السلام بن أبى الماضى ، وهزمهم عمير أولا ولكن كمينا خرج عليه عند اليهودية ، وقتله مبارك بن الأسود (يوم الثلاثاء ١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٤) ، فكانت ولايته ستين يوماً . قال حبيب بن أوس الطائى :[1]

ألا رُزِئَت خراسانُ فتاها غَداةَ ثَوَى عميرُ بن الوليد

---

(١) روى الكندى هذه الأبيات ص ١٨٧ ، وهى فى الديوان ص ٣٥٩ من قصيدة طويلة .

فيا يوم الثلاثا كم كئيبٍ ... رماه الحزن فيك ، وكم عميدِ
فكم سَخَّنْت فينا من عيون ... وكم أغْبَرْت فينا من خدود
فما زجرت طيورُك عن سَنيح ... ولا طلعت نجومك بالسعود

وقال أيضاً :

أنعى عميرَ بن الوليد لغارةٍ ... بِكر من الغارات أو لِعَوان[1]
أنعى فتى الفتيان غيرَ مكذَّب ... قولى ، وأنعى فارس الفرسان

وقال سعيد بن عفير :

ساقت عميرَ إلى مصر مَنِيَّتُه ... بامرةٍ لم يكن فيها بمَسْعود
حتى أتته المنايا وهو ملتحف ... ثوبين من حبرات البأس والجود
فاذهب حميداً فلا تبعَد فكل فتى ... يوماً ، وإن كرُمَت[2] أفعاله ، يودى

ووليها عيسى بن يزيد الجلودى مرة ثانية لأبى إسحاق وحاربه أهل الخوف فهزموه إلى الفسطاط ، قال حبيب بن أوس يهجو الجلودى :

قل للجلودى الذى يده ... ذهبت بمال جنوده شغبا
الله أرهقك الهزيمة إذ ... جذبتك أحبال الردى جذبا
وأتتك خيل لو صبرت لها ... أنهبْنَ روحك فى الوغى نهبا
من حى عدنان وإخوتهم ... قحطانَ ، لا ميلاً ولا نُكُبا
أعصمتَ بالليل البهيم وقد ... ألقى عليك ظلامُه حجبا
وتركت جندَك للقنا جَزَراً ... والبيضُ تجذب هامهم جَذبا
فاشكر أيادىَ ليلة سنحت ... لك بالبقا فركبتها ركبا[3]

(١) البيتان من قصيدة نونية فى الديوان ص ٣٨٩
(٢) وردت هذه الكلمة « كريت » ولا معنى لها .
(٣) البيت الأول من الديوان ص ٤٩٠ ، وبقية الأبيات مختارة من قصيدة فى تلك الصفحة

ثم قدم أبو إسحاق إلى مصر وحارب أهل الخوف وهزمهم ، ودعا رئيس قيس عبد الله بن حليس ، ورئيس اليمانية عبد السلام بن أبى ماضى ، وقيدهما وسجنهما ثم دخل بهما الفسطاط وقتلهما وصلبهما بالجيزة (الاثنين ١٨ ذى القعدة سنة ٢١٤) . قال معلى الطائى وخص بأكثر شعره عبد الله بن حُليس[1] :

إن الحَلَيْسىَّ غدا سابقا ... فى حلبة الجسرين قد قَصَّبا
على طِمِرّ ماله أرجل ... من صنعة النجار قد شُذِّبا
وليس يدرى عند إلجامه ... من أثْفَر الطّرف ومن لبَّبا
مسمَّرُ الخلق أمونُ الشَّوى ... يأنف أن يأكل أو يشربا
ولو سرى ليلته كلها ... ما جاوز الجسر ولا قربا
لو كان من بعض نخيل القرى ... كان أبو القاسم قد أرطبا
كسا أبو إسحاق أوداجه ... أبيض لا يُعْتِب من أغضبا
وقد سقى عبدَ السلام الردى ... فكيف بالله إذا جَرَّبا

وهو شعر ساخر يتهكم فيه بهذا البائس المصلوب . ويصف الصَّلب وحصانه ومكانه وصْفا دقيقا موجزا.

وخرج أبو إسحاق إلى الشام فى أتراكه ومعهم جمع من الأسارى ، وذلك فى أول المحرم سنه ٢١٥ .

ووليها إسحاق بن يحيى بن معاذ من قبل المنتصر بن المتوكل ، وولى عهده ؛ فى ١١ ذى القعدة سنة ٢٣٥ . وقيل إنه عزم أن يثور بها ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى عزل ومات بها بعد عزله سنة ٢٣٧ .

قال شاعر بصرى يرثيه ويسقى جدثه[2] :

سقى الله ما بين المقطم والصفا ... صفا النيلِ صوبَ المُزْن حين يصوب

(١) الكندى ص ١٨٨
(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٨٥

وما بيَ أن أسـقى البلادَ وإنما أحاولُ أن يُسقىَ هناك حبيبُ
فإن تكُ يا إسحاقُ غبت فلم تَؤُبْ إلينا ، وسَفْر الموت ليس يئوب
فلا يُبعِدَنك اللهُ ساكنَ حُفرة بمصرَ عليها جَنْدَلٌ وجَنوب

ثم وليها عنبسة بن إسحاق الضبى من قبل المنتصر سنة ٢٣٨ فأخذ المال برد المظالم ، وأقامهم للناس وأنصف منهم ، وظهر بالخوف من العدل ما لم يسمع بمثله فى زمانه ، وكان يروح إلى المسجد ماشيا من العسكر، وكان ينادى فى شهر رمضان بالسحور ، وكان مشهوراً بمذهب الخوارج فلم يسلم من لسان الشعراء .

قال يحيى بن الفضل[1] :

من فتى يبلغ الإمام كتابا عربيـاً ويقتضيه الجوابا
بئس والله ما صنعت إلينا حين وليتنا أميراً مصابا
خارجياً يدين بالسيف فينا ويرى قتلنا جميعاً صوابا
مرَّ يمشى إلى الصلاة نهارا وينادى السحور : ضل وخابا

وفى ولايته نزلت الروم دمياط يوم عرفة سنة ٢٣٨ فملكوها وما فيها ، وقتلوا وسبوا ، فخرج إليهم عنبسة فلم يدركهم فقد ارتحلوا إلى تنيس ، فأقاموا بأشتومها فلم يتبعهم عنبسة . فقال يحيى بن الفضل للمتوكل يثيره على عنبسة ، الذى ضعف وتواكل عن تتبع الروم وتأديبهم[2] :

أترضى بأن تُوطأ حريمُك عَنْوة وأن يستباحَ المسلمون ويُحْرَبوا
حمارٌ أتى دمياطَ والروم وُثَّبُ بتنِّيس منه رأىَ عين وأقرب
مقيمون بالأشْتُومِ يبغون مثل ما أصابوه من دمياطَ والحرب تَرْتُب

(١) الكندى ص ٢٠١
(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٤

فما رام من دمياط شبراً ولا درى ... من العجز ما يأتي وما يتجنب
فلا تنسنا إنا بدار مَضيعَةٍ ... بمصرَ ، وإن الدين قد كاد يذهب

ونرى فيما تقدم أن هذا الشعر قد مال ، قصداً أو بغير قصد ، إلى السياسة والإدارة والأمن :

فعنى بالولاة والوقائع والطاعة والعصيان والحرب والسلم وشبه ذلك . ومن الطبيعى أن يذكر الشاعر هؤلاء الولاة بخير أو بشر . وهنا يقترب من السياسة ولا يستطيع أن يتجنبها عند ما يؤيد واليا رضى عنه ، أو يعيب عاملا سخط عليه ، أو عندما يقدم نصيحة لأمير المؤمنين أن يعزله أو يقره ؛ فتختلط السياسة بالمدح والهجاء والنصح والوصف وسواها ، ولم تسكت عنه دوافع العصبية القبلية فى بعض الأحيان.

وليست هذه الأحداث وحدها هى التى أثارت الشعراء ، ولا أظن هذا القدر هو كل ما قيل . ولولا كتب التاريخ واهتمامها بأدب هذه الفترة لما بقى لنا منها شىء يذكر ، فلها فضلها فى بيان زمن النصوص على وجه الدقة أو التقريب ، وفى توضيح معناها ، وبيان إشاراتها والإفصاح عن الشخصيات والأماكن والحوادث التى وردت فيها .

ولكن كتب التاريخ تحفظ ما يعنيها ، وكتب الأدب تروى ما يعجبها ويرضيها . وقد يضيع بين هذين قدر كبير لم يجد من يهتم بروايته .